رواية
Novel

علي الشدوي
Ali Shadawi

سماء فوق إفريقيا



علي الشدوي

سماء فوق إفريقيا

رواية





سماء فوق إفريقيا

علي الشدوي

رواية



TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email : tuwa@london.com



ص.ب. 113/ 5752 ر.ب. 1103 2070
هاتف : 009611659148 ، فاكس : 009611659150
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
الطبعة الأولى (2007 م)

ISBN: 978-9953-476-99-3

«أنعم عصفور النظر في تفاصيل الخريطة وهو يرتعش . كان المحيط المكتنف إفريقيا ملوناً بمداد في زرقة سماء الشتاء الدامعة عند الفجر ، ولم تكن خطوط الطول ، وخطوط العرض خطوطاً متماثلة للبوصلة ، فضربات الفرشاة الجسورة قد استصرخت تقلبات الزمن ونزواته . والقارة نفسها تشبه جمجمة إنسان قد شنق رأسه ، كإنسان ذي رأس كبير وعينين حزينتين مسدلتين تتفرسان في أستراليا أرض حيوان الكوال والبلاتبوس ، الحيوان المائي الثديي البيوض ، وحيوان الكنغر ، وكان الرسم المصغر لإفريقيا الذي يبين توزيع السكان في الركن السفلي من الخريطة يشبه رأس ميت في طريقه إلى التعفن ، وآخر معرق بطرق المواصلات يشبه رأساً أجرد به شعيرات رفيعة ومعروضة بشكل موجع وكلتا هاتين الإفريقيتين الصغيرتين توحيان بموت غير طبيعي ، فج وعنيف» .

(هموم شخصية)

أوي كنزابورو

(١)

قبل الموعد بنصف ساعة ، استيقظت أنتظر الحافلة التي ستقلني إلى حي بَلْبَلة ، الطقس حار وقاسٍ في الخارج ، لكن الشعور بالحر ، كان شديداً حينما صعدت إلى الحافلة . عبر النوافذ المفتوحة كانت الأشياء مغلفة برقاقة من الوهج ، ولا يختلف الوضع كثيراً داخل الحافلة ذات المقاعد المهترئة .

وأنا أرتب حشوة المقعد ، لفت نظري أحد الركاب ، مسحته بنظرة بحيث لم أتمكن من معرفة ما إذا كان فاقد الوعي ، أو نائماً أو مرتخياً ، فقط حين سويت الحشوة ، وحين هممت بالجلوس ، توقفت لحظة كي ألقي عليه نظرة سريعة ، كان عارياً إلا من قطعة قماش بالية تغطي جزأه الأسفل ، وعلى الرغم من نحافته ، وتقوس عموده الفقري ، إلاّ أن الجلد الذي يشد عظامه البارزة مغطى برسومات وأشكال دقيقة .

منحني منظر الرجل فرصة لكي أستحضر وشوماً ، وأتذكر رسومات أخرى ، فقد رأيت في الأحياء الجيبوتية الكثير منها ، واحتفظت منها بوشم سكين إفريقية تخترق عنقاً من اليمين إلى اليسار ، وبجمجمة وخلفها شبكة عنكبوت ، أما الجملة التي ما زال معناها عالقاً بذاكرتي ، فقد رأيتها موشومة باللغة الصومالية على إحدى الجبهات العريضة .

على امتداد السنوات التي عشتها في شرق إفريقيا ، لم أكن أعرف متى بدأت تنتشر هذه الرسومات؟ لكن فيما بعد ، عرفت أنها تشيع بين اللاجئين ، وتختلف فيما إذا كانت على رجل أو امرأة ، وأن كل وشم يتخذ معنى معيناً ؛ فوشم السكين التي تخترق العنق يعني أنه خطر يقتل بدافع الانتقام ، ووشم الجمجمة التي خلفها شبكة عنكبوت يعني أنه لواطي ومحشش ، أما الجملة المكتوبة باللغة الصومالية فقد ترجمها لي أحد أصدقائي الجيبوتيين من أصل يمني ، تقول الجملة : «لا يوجد طريق يصل بين النار والجنة» .

مثلما سمعت ، ترسم هذه الوشوم والرسومات في حي بَلْبَلة ، وبأدوات بدائية : مسامير وأسياخ مدببة وحواف زنك مستعمل ، أما الحبر فيحصلون عليه بحرق أحذيتهم ،

وخلط ما ينتج عن احتراقها ببولهم ، ولكي يتجنبوا تحولها إلى جروح عميقة يقرؤون عليها بعض الطلاسم العفرية .

كل من تحدثت معهم عن هذه الوشوم ، يؤلفون عنها حكايات بطريقتهم الخاصة ، لكن الروايات التي وثقت فيها هي أن أغلب الموشومين ينتمون إلى كوادر حزبية دنيا وتنظيمات سرية ، فعندما انهارت السلطة المركزية في الصومال ، وقامت الحرب الأهلية تزايد اللاجئون ، وبدأوا يستخدمون الوشم والرسم للتعبير عن انتماءاتهم السياسية وإظهار العودة .

وأنا أستقصي عثرت على معلومات لم أكن أعرفها ، منها أن الوشم ثقافة تنتمي إلى السجون والمعتقلات ، وأنها ظهرت أول مرة مع الجولاج (Gulag)[1] ، فعندما تولى ستالين السلطة ، ازداد نزلاء السجون ، الذين بدأوا يستخدمون الوشوم للتعبير عن معتقداتهم السياسية ، وتوضيح مراكزهم في التسلسل الهرمي داخل مجمع السجن ، وأهم من ذلك للإعلان عن هواياتهم ومواهبهم وخططهم .

(١) كلمة روسية مركبة من الأحرف الأولى للوكالة الحكومية السوفيتية المشرفة على شبكة معسكرات السخرة في عهد ستالين .

في هذه المعلومات التي لم أكن أبحث عنها ، يوجد شيء من الحقيقة ، فقد قرأت فيما بعد مقالاً مترجماً في صحيفة (القرن) ، كتبه أحد الأطباء المشتغلين بالتشريح يتحدث فيه عن ثقافة الوشم في سجون ستالين ، يعلق فيه المترجم أن ثقافة الوشم قد تكون انتقلت إلى سجون الرئيس الصومالي محمد سياد بري ، التي تمتع فيها الواشمون بحظوة بين السجناء ؛ إذ أكسبتهم قدرتهم على الكتابة أوضاعاً تساوي أوضاع رجال الدين ، وحينما انهارت سلطته ، فتحت السجون ، وخرج المسجونون يحملون انتماءاتهم ، غير أن هذه الانتماءات التي ظهرت على أجسادهم على شكل رسومات ووشوم ، سرعان ما تحولت إلى الإعلان عن هواياتهم ومواهبهم في القتل والنهب والاغتصاب .

نتاج هذا التحول كان واضحاً في ركّاب الحافلة ، وما رأيته ، ذكرني بهذا التحول الذي طرأ على الأهداف والغايات ؛ فهناك المزيد من الأشكال ، تحملها الأجساد التي أحاطت بي : رجل في أواخر العقد الرابع من العمر وشم على ذراعه أفعى منطوية على ذاتها ، وآخر وشم نجمتين على كفه اليمنى ، وثالث وشم على ذراعه شبكة

يحملها طائر ، ورابع وشم عيناً على جبهته ، أما الوشم الذي آذى عيني أكثر من غيره فهو أذن رسمت بدلاً من أذن مقطوعة .

يجلس الرجل ذو الأذن المقطوعة في المقعد الذي يحاذي السائق ، نظرت إليه بحواسي كلها كي أثبت الوشم في ذاكرتي كما رأيته ، راقبت الوشم بعين المشمئز والمشفق ، أبعدني فراغ الأذن عن حقيقة الأجساد البشرية ، وأدخلني فخ الوهم الفارغ بوجود الأشياء بعد زوالها ، مكان خال من أعلى الرأس إلى أسفل الفك ، لا شيء تتعثر فيه عيناي كفضاء مفتوح ، وخال وواضح المعالم ، تتجول في أرجائه فلا تصطدم بأي شيء .

شعرت بمشهد عنيف وكئيب في فراغ الأذن ، فالوشم صامت وله حيّز الأذن التي قطعت ، مكان الأذن مؤذٍ لكل من يراه ، فراغ يحسه الإنسان ويشعر به من الأعماق ، وبالرغم من أن الوشم بسيط إلا أنه بدا لي كأذن طبيعية خلقت ملتصقة بالجلد ، وشماً يحاكي أذناً حقيقية خلقت في غير مكانها ، ويبدو كما لو كان ينقل الصوت إلى مسام الجلد ، وليس إلى الذاكرة السمعية .

(٢)

يقع حي بلبلة في مدينة جيبوتي ، لا أستطيع أن أحدد في أي لحظة سمعت عنه ، لا بد أن ذلك حدث في الأيام الأولى التي باشرت فيها العمل في مركز البحوث والإنتاج والإعلام CRPN ؛ لأنني ما زالت أتذكر دعوة أحد زملائي الجيبوتيين إلى الغداء ، بعد ذلك بأيام قليلة توطدت علاقتنا ، فاقترحت عليه أن يأخذني إليه فوافق بلا تردد .

ذكرى الحي الأولى ما زالت واضحة ، لكن لا وجود لأي يقين بأن تكون ذاكرتي صادقة ، فحين هبطت إلى الحي ، انذهلت من الكراتين والزنك المستعمل وصفائح الزيوت الفارغة التي أعاد أهل الحي تشكيلها ؛ لكي تتحمل حياتهم البشرية .

وأنا أسترجع تلك الزيارة ، طفت سلسلة من المشاهد التي عوملت فيها الوجوه بقسوة ؛ حيث العمى والصور

والحول والندوب والجروح ، بحيث لا يمكن لمن يشاهدها إلاّ أن يفكر في قنبلة انفجرت ، وتوزعت شظاياها في كل شبر من الحي .

الانطباع الذي مازلت أحتفظ به ، أن مشاعري كانت محايدة ، ولم يكن في استطاعتي عندئذ أن أغيّرها ؛ لأنني لا أملك أي سلطة عليها ، كنت متضخماً ؛ لأن أهل الحي بدوا أمامي كأطفال يرزحون تحت أنني أفضل منهم وأرقى ، شعرت بأنهم يرونني كامل الوجه ، ومن غير أي عاهة فخيم وجهي فوق وجوههم كحمل ثقيل .

ونحن عائدان تحدثنا عن الحي .

قلت : يبدو الحي برهاناً على أن البشر يعيشون في أي مكان يستقرون فيه ، فغريزتهم في إقامة المساكن كغريزة الطيور في صنع الأعشاش .

رد صديقي : بالعكس ؛ فالمساكن المقامة من الزنك والكراتين لا تنبئ بالمكوث والاستقرار .

لم نضف أي شيء فقد هبط كل منا إلى ذاكرته .

أسوأ تفاصيل تلك الزيارة ، لم تكن مشاعري المحايدة التي أثارت ألمي فيما بعد ، إنما فيما كنت على

وشك أن أفعله ؛ فقد غازلت إحدى الفتيات ، كان وجهها ناعماً وموشّى بانتفاخات صغيرة من أثر البعوض ، واقفة كزجاجة كوكاكولا ما من موضع في استدارة جسدها يرد العينين أو يؤذيهما ، بشرتها ناعمة ومشدودة حتى خيل إلي أنني أضغطها فترتد .

حينما اقتربت مني أمسكت بيدها ، فعرفت للمرة الأولى ماذا يعني تسليم المرأة براحة الكف . «تسليم العطاء مقابل الأخذ» ، هكذا شرحت لصديقي بعد أن سحبت إحدى النساء يدها من يدي .

ونحن نسير اعترفت لصديقي بأنني أحسست براحة كفها تتلوى وتتفتح في راحة يدي ، وأنني فهمت من نبضات كفها أنها تتوسل إلي ، حتى أنني شعرت أنها تبللت استعداداً للتسليم واستقبال الرغبات ، وأنني لم أعد أعرف أين أنا ، فقد اقتادتني براحة كفها إلى آفاق غامضة ، «ويدي في يدها شعرت بأنني أتوغل في غربة لم تحدث لي من قبل ، غربة ليس فيها ما أعرفه» ، هذا ما قلته لصديقي وقد حاذيته كتفاً بكتف .

عبرنا الحي من الشمال إلى الجنوب ، ونحن نعبر طوّقتنا إيقاعات إفريقية صاخبة ، وترتيلات الأناجيل

والقرآن الكريم ، وألحان حزينة تنادي الروح ، وأغان عفرية وصومالية ،وكلاب تنبح من غير أن ترفع رؤوسها ، نباحاً لا تبدو له نهاية ، فكلما سكت كلب أتى نباح كلب آخر ليحتل موقع صوته ، نباح أسمعه في صمت ؛ ليس لأن الكلاب لا تزال تنبح ، إنما لأن صوت نباحها ما زال موجوداً في ذاكرتي .

(٣)

قبل أن تتحرك الحافلة ، كنست كل التفاصيل عن تلك الزيارة ، واستغنيت عنها بالمرأة التي خطفت يد الفتاة ، تلك المرأة التي احتفظت لها بتصور مثالي بفعل زيارتي الأولى ، لكنها تحولت فيما بعد إلى واقع معاكس لما فعلته ما إن بدأت أكتشف حقيقتها ، امرأة كعنكبوت تهرم في شبكتها التي حاكتها ، لم تكن تذبل كالنساء ، بل تجف كالحشرات ، تتقلص أرجلها رويداً رويداً ضامة معها أي شيء تتعثر فيه .

كان يمكن أن تصبح حياتي شيئاً آخر ، لو لم ألتقِ بها ، صورتها الأولى التي احتفظت بها ، صورة امرأة في العقد الثالث من عمرها ، مزينة بأساور حمراء وصفراء ، ودائرتين كبيرتين في أذنيها ، وقلادة إفريقية تتدلى إلى قرب بطنها ، وبشرتها الفاتحة واللافتة للنظر في حي يندر أن ترى فيه امرأة بيضاء أو برونزية .

صورتان أخريان بقيتا لهذه المرأة ؛ لأن صديقي الجيبوتي دائماً ما يذكرني بهما : الأولى وهي تلبس سروالاً طويلاً أسود ، كان مشقوقاً من فوق حتى أسفل الركبة ، كاشفاً عن فخذها الذهبي كحقل حنطة ، الفخذ الذي أتاح رؤيته انحسار ثوبها حينما تقرفصت ؛ والثانية بروز صدرها الذي سيكون ناقصاً من غير نهدين نافرين .

أول مرة تحدثت معي ، بدأت بوقفة قصيرة ، وقفة بدت فيها كما لو كانت تبحث عن مواضع محددة في منظر طبيعي مرسوم في ذاكرتها ، ثم سردت علي ما كانت قد فكرت فيه ، وأرادت مني أن أستمع إليها ، استمعت إليها وأنا أعتقد أن ما تسرده ليس إلاّ خيالاً أو جنوناً ، لكن حين عرفتها عن قرب ، أدركت أن وقفاتها القصيرة أثناء الحديث ، وما يبدو لمن يستمع إليها أنه منظر طبيعي ، يندرج تحت ما يسمى بالجاذبية أثناء الحديث ، تلك الجاذبية التي تقع في مكان ما لم تتدبر اللغة أمر إخراجها في كلمات إلى الآن .

لسبب أو لآخر ، لم أعد أفكر فيها ، بل شعرت أنني في حاجة إلى أن أتأمل علاقتي معها ، وفيما أنا أتأمل ،

اكتشفت أنني مثل أي شيء تتعثر فيه ، وأنني مثل تلك الأشياء ضحايا المصير نفسه ، وأنني أتقاسم معها الشبكة التي تحوكها ، أذهلتني هذه الحقيقة ، لكنني أحسست بأن قدري يكتمل معها ، وأنه سيكون قدراً ناقصاً لو لم أجدها .

أستطيع أن أتنفس بعمق ؛ بعد أن وجدت مبرراً لردود فعلي أمامها ، أقرب رد فعل كان البارحة ، إذ ظهرت لي فجأة أمام مكتب البريد كما لو أنها نبتت من الأرض ، أحد ما على ما أتذكر ، كتب عن مفاجآت الحياة ، في تأمل ينم عن بصيرة نافذة ، قال : «كثيراً ما تقابلنا (فجأة) هذه في القصص ، الكتاب على حق ، فما أحفل الحياة بالمفاجآت» .

قالت لي : لقد واعدت فتاة في حي بلبلة .

وافقت من غير أن أتردد ، وهل يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ إن هناك نساء يضطر المرء إلى أن يوافق على ما يردن . الآن فقط عرفت أنها خدرتني قبل أن تضمني إلى شبكتها ، إلى فخها الأبيض والفارغ ، توقفت ذاكرتي لحظة ، لا أستطيع أن أقول إن ذاكرتي ترددت ، بل علقت في لحظة صمت رهيبة ، لحظة أبعدتني عن حقيقة

الأشياء ، غير أن الرجل ذا الأذن المقطوعة حكّ مكان أذنه ، فأعادني إلى الواقع ، شعرت أنني ما زالت أتواصل مع الحقائق المحيطة بي ، لكن ذلك الشعور لم يدم طويلاً ، فقد علق بذاكرتي عبارة حسبتها للوهلة الأولى خيالاً «النساء عناكب ملتهمة ، وإذا لم تتحرر منهن لن تستطيع أن تكون أنت ، وستعيش لمجرد إرضائهن» .

(٤)

حينما تحركت الحافلة ، راودني إحساس بأن عالم تلك الزيارة قد استيقظ من جديد ، والآن وقد تطلعت من فوق كتف السائق ، والحافلة ترجرجني في مكاني ، استعدت تفاصيل كنت قد نسيتها ؛ ففيما كنا نمشي أنا وصديقي ، مثلت بؤرة اهتمام أهل الحي ، ربما لأنني أبيض ، أو لأنني ألبس ملابس مختلفة ، أو للصورة الذهنية التي يحتفظ بها أهل الحي عن ثراء العرب وحبهم للنساء .

هذه هي تبريرات صديقي ، أما أنا فقد أخذت في تلك الزيارة بما لا يمكن أن أكون قد فكرت فيه ؛ فقد اكتشفت بأن هناك علاقة بين كل ما هو موجود في الحي ، لا يوجد فيه أي شيء عرضي في تزاحم التشوهات والآلام وجمال الأجساد وقبحها ، حي مزدحم كدغل إفريقي ، فيه مئات من الكائنات الجميلة والمريعة .

لم يكن ليكتمل مشهد الحي في ذاكرتي ، لولا النساء اللاتي كن ينظرن إلي لحظات ، نظرات تستمر ثانية ، دقيقة ، تأتي إلى وجهي ، وتذهب سريعاً .

ترى ! إلام ينظرن؟ هل ينظرن إلي فعلاً؟ ! . لم أكن أعلم ، لكن وفيما أنا أفكر فيما يمكن أن أجده وأنا ذاهب إلى هناك ، فربما كن ينظرن إلى خيالهن البعيد ، إلى وجوه يعرفنها أو شاهدنها في الأحلام ، وربما لم يكن ينظرن إلى شيء ، وأن هذا اللاشيء هو الذي يجعل نظراتهن تبدو وادعة وحنونة .

مزيج غير قابل للمزج يجري في حي بلبلة ، تلك هي الصيغة التي توصلت إليها ، وأنا أتذكر بشراً يتبولون على طرف الطريق ، ويسيرون شبه عراة ، عور ومشوهون ، أثداء ذابلة في قمصان وسخة ، وأخرى مكتنزة في قمصان مغسولة ونظيفة ، وجنات تنضح بالصحة ، وأخرى بارزة من النحول ، شفاه مصبوغة بألوان وردية وبنفسجية ، وأخرى جافة ومتشققة ، نساء قصيرات وممتلئات ، وأخريات طويلات حتى أن رؤوسهن تبدو صغيرة لطولهن ، قطط هزيلة تتمسح بالمارة ، وأخرى وحشية تنظر بمكر من تحت الطاولات الخشبية المخلعة .

يعاد تركيب المزيج بطريقة معقدة ، حينما تحمل بنات الحي صفائح الماء من خزانات أمنتها جمعيات خيرية إسلامية وأوروبية ، صفائح يحملنها من غير أن يلمسنها ، والآن وأنا أراقبهن كما لو كنّ أمامي ، ظهرن لي كجسم لدن يطفو فوق أزقة الحي الموحلة ، منسابات فوق العفونة حيثما مالت صفائح الماء ملن معها .

شعرت بأن هناك رقصاً غير مرئي يلف ويدور حولهن ، وأن هذا الرقص هو الذي يمنحهن الحياة ، لا أفكر في التوازن الذي يحتفظن به ، بل في كيفية تفاهم أجسادهن مع الماء الذي يترقرق فوق رؤوسهن ، عن التعلق العميق بين أجسادهن وبين ما تحمله من صفائح ، عن الرهافة التي تتجاوز تعقيدات التوازن ، عن هن وهن يتمتعن بذلك التوازن الرهيف .

استولت فتاة على انتباهي أكثر من غيرها ، أنزلت الصفيحة وهي تنحني بتوازن محسوب كي لا تهرق الماء ، فظهر أصل نهديها الطليقين من أي حمالات ، غرفت من الصفيحة بكفيها وغسلت وجهها ورشرشت بالباقي رقبتها فتألق وجهها الأسمر باللذعة التي أحدثها الماء ، وبعد أن انتهت أصبحت أكثر إشراقاً كأنما غسلت

من الداخل ، يتوهج وجهها بهالة من النقاء ، وفيما أنا مأخوذ بهالتها ، نظرت إلي وابتسمت فخالجتني بهجة منعشة ورغبة في أن أتقدم إليها ، وقبل أن تكتمل رغبتي اقتربت مني فأمسكت يدها ، تلك المسكة التي قطعتها المرأة العنكبوت .

(٥)

أسكن في عمارة مكونة من ثلاثة أدوار مملوكة لأحد أعضاء مجلس الشعب الجيبوتي ، تقع شقتي في الدور الثالث : غرفة نوم واحدة ، وصالة مستطيلة ، ومفتوحة على مطبخ صغير ودورة مياه ، كل العمارة مصممة بهذه الطريقة التي تجزأ بها العمارات إلى ما يشبه الشقق ، وبالرغم من أني أعمل في CRPN ، ومن المفترض أن أسكن في مكان أوسع يليق بخبير تربوي ، مكان أستقبل فيه الزملاء والأصدقاء ، إلا أن ذلك لم يحدث ، فأنا لم أكن أبحث عن مكان أستقبل فيه الضيوف ، بل عن مأوى لا يمكن لأحد أن يقتحم علي عزلتي الاختيارية .

استأجرت الشقة مقابل إيجار شهري مقداره ١٠٠دولار ، ما يعادل ١٧٠٥٠ فرنكاً جيبوتياً ، ومن هنا أذهب إلى CRPN وأعود من غير أن أدعو أحداً لزيارتي ، لا من معارفي ، ولا من زملائي الذين أوفدوا معه ، لا لأني

أكرههم ، بل لأني أحب الوحدة ، لكن حينما أردت أن أخرج من عزلتي ، وأن أجتمع وأتحدث ، لم يدعني أحد ، ليس لأن أحداً لا يريد أن يدعوني ، بل لأنهم اعتقدوا أنني مشغول عنهم .

خلال الشهر الأول لسكني ، تغيرت العمارة ، وأصبحت تعج بالنساء ؛ فقد استأجر الشقق الخمس الباقية نساء أثيوبيات ، ما بين خمس إلى ثمان نساء في الشقة الواحدة ، يقسمن الغرفة والصالة فيما بينهن : سرير وستارة تفصل عن السرير الآخر .

في الأيام الأولى لسكنهن ، لاحظت أنهن لا يكاد يرين في النهار ، لكن في الليل ، وفيما أنا أتهيأ للنوم أسمع نوافذ شققهن تغلق بعنف ، ومن خلال الأبواب المواربة تصل إلى أذني موسيقى أثيوبية ، وصدى أسرة تكشط البلاط ، ورنين معادن تسقط على الأرض ، كانت أذناي تلتقطان مقاطع من ألحان لا تتوقف إلا مع الفجر .

بشكل عام ، أستطيع أن أقول : إنني أعيش ، إنه لشيء مبهج أن تكون على قيد الحياة وأنت في شرق إفريقيا ، تأكل وتشرب وتقرأ ، وتقترح أساليب مبسطة تساعد بها الطلاب لكي يتعلموا ، والمعلمين لكي يعلموا ، تحاول

أن تبين أن المعرفة لا تكتشف بل تبنى ، عمل ممتع أن تساعد الآخرين كي يتأملوا خبرتهم ، ويبنوا منها وعليها معان جديدة .

في أيام الإجازة أخرج إلى دورالي أشتم رائحة البحر ، أو أذهب إلى بحيرة الملح ، أو أصعد إلى عرتا ، حيث يعلق في الصباح غبش ما بين السماء والأرض ، يخترقه غناء الرعاة العفريين ، وضوء الشمس الذي يبتلع القمم المحيطة ، والنسيم الذي يحرك الأشجار فتتساقط القطرات ، وكحلمات النهود تتعلق قطرات الندى بالأعواد اليابسة .

لم تكن راحتي تكتمل ما لم ألتصق بالطبيعة على حدود جيبوتي مع الصومال ، الحدود التي لا تبعد أكثر من ٢٠ كيلومتراً ، هناك حيث الأرض مفروشة بطبقة سميكة من الأعشاب ، والأشجار التي تعرشت ، ومدت فروعها في جميع الاتجاهات ، والطيور التي تروح وتجيء ماحية الحدود التي أقامها البشر ، والسماء الزرقاء التي تمتد في جميع الاتجاهات كدائرة تسور الأفق ، هناك أعود إلى حالة بدائية ، وينتابني شعور بأنني أخرج إلى الوجود أول مرة .

حينما أعود تكون المرأة العنكبوت في انتظاري ، حيث يجب أن أتحدث معها ، تطلب مني أن أحدثها عن التفاصيل التي تجعلها مرحة ، وتجعلني مطمئناً ، هناك دائماً بعد كل خرجة حكايات مضحكة ، المرأة العنكبوت تحب هذه ، تريد أن تسمع الحكايات التي تضحكها ، لا تريد غير ذلك ، التفاصيل الأخرى ، لا تحب أن تسمعها ، وقد تدربت على ما يمكن أن أتحدث به معها ، أو أكتمه عنها .

لذلك لم أكن أحدثها عن اللاجئين الصوماليين الجاثمين ، الذين لا يستطيعون أن يعبروا عن مأساتهم ، ولا عن اللاجئين الأريتيريين الذين يتحركون كحيوانات تنوي الاستراحة ، ويتحدثون بأصوات أعلى مما يحتاجون إليه ، ولا عن اللاجئين الأثيوبيين المطروحين ، والمعروضين ، والموزعين على الشوارع ، والساحات والأزقة ، بحيث يستحيل أن أجد خيالاً يستوعبهم .

لأنني أريد منها أن تبقى مرحة ، لا أحدثها عن المجانين العراة الذين لا يبرحون أمكنة عرفت بهم ، مجنونين عاريين على الرصيف الذي يقابل القنصلية الفرنسية ، وآخر في الساحة المقابلة لدار السينما ، وامرأة

عارية تتجول على شاطئ الإيرون ، وأخرى على الرصيف المقابل للمعهد العلمي السعودي ، مجانين لا يعدون ولا يحصون تعج بهم مدينة جيبوتي ، يؤكدون لي أن الجنون ليس نتاج أرواح شريرة ، بل ظاهرة ثقافية تخص الظروف والمشاكل الاجتماعية .

لم أكن أحدثها عن ذاكرتي الرهيبة التي تكونت من كل ما هو غريب ومأساوي ، ذاكرة المجانين وهم يكلمون أنفسهم ويثرثرون مع أشخاص متخيلين ، ذاكرة آخر لحظات أشخاص يموتون في الطرقات والأزقة ، تتصلب أجسادهم ، وتكتسي وجوههم آلام الاحتضار المؤلمة ، تتغضن وجناتهم وأجفانهم ، ترتخي أفكاكهم السفلى ، وتموت مع موتهم آلاف المشاهد التي يعرفونها ، لم أكن أحدثها عن هذا كله ، ولا عن الأجساد الموشومة .

أكنت عاشقاً وأنا لا أحدثها بما لا ترغب أن تسمعه ، لا ، لم أكن كذلك ، لكنني أيضاً لم أكن أكرهها ، فقط وبشكل عام لم أكن أرتاح لهذا النوع من النساء ، أنظر إليهن ببرود ، لا لأني أعتبرهن سيئات ، بل لأنني لا أحب المكر ، وأحب أن تحدث الأشياء وتسير بكل وضوح .

حينما قابلتها أول مرة ، في اللحظة التي خطفت فيها يد الفتاة ، قالت لي :

- عربي .

تفحصتها شاعراً أن وراء كلمتها شيئاً مثيراً للسخرية ، في الحقيقة لم أكن أهتم بما تثيره كلمة (عربي) وأنا أمشي في حي كحي بلبلة ، ولم أكن أريد أن أتحدث مع صديقي فيما يمكن أن تثيره ، بقدر ما كنت أريد أن أرد على كلمتها التي نطقت بها ، لا ، لم تنطق بها ، بل بصقتها من فمها ، وقد تمّ لي هذا حينما رددت .

- قحبة .

لم يصدر عنها أي فعل ، وتصرفت كما لو كانت لم تسمع شيئاً ، وربما أنها لم تسمع فعلاً ، لذلك رحت أراقبها وهي تلملم نفسها لكي تغادر المكان .

وأنا واقف قرب صفيحة الماء التي تركتها الفتاة ، وحيث نظرت إلى الصفيحة ، تلاشى أملي في أن أراها مرة أخرى ، لكن الأمل مهم ، هكذا فكرت ، وأنا أراقب ظهر المرأة العنكبوت بعين المتفائل ، كنت أعرف أن الأمل شيء آخر غير التفاؤل ، «الأمل ليس القناعة بأن شيئاً ما سينتهي نهاية جيدة ، إنما هو الثقة في أن شيئاً ما

له معنى ، بغض النظر عما ستنتهي إليه ، الأمل الذي هو فوق وقبل كل شيء يمدنا بالقوة لكي نعيش» .

بهذه الطريقة فكرت ، في ذلك الزمن الذي تعود إليه أقدم ذكرياتي عن المرأة العنكبوت ، ذكرى ما انفكت تطاردني الآن بصورة نابضة بالحياة ، صورة أنقذني منها صوت القطار القادم من أثيوبيا ، والذي منحني لحظات تواصل مع الواقع ، الواقع الذي ربما يحمل المنطق والمعنى ، هناك ، في حي بلبلة ، حيث لا أعرف ، وأنّى لي أن أعرف ! ما يخبؤه لي القدر .

الآن أنا في حاجة إلى الأمل أكثر من ذلك الوقت ، فالأمل غير التوقع ، وليس له علاقة بالكيفية التي يحتمل أن تصبح عليها الأمور ، وقد كان هذا مصدراً عميقاً لراحتي النفسية .

(٦)

هناك العديد من الـدروب التي يمكن أن تسلكها الحافلة إلى سوق الذباب ، السوق الذي يقع قبل بلاص رامبو ، حيث الموقف قبل الأخير للحافلة قبل أن تتجه إلى حي بلبلة ، أقصر هذه الدروب ، أن يتجه السائق نحو شارع الجمهورية ، بعد أن يصل بداية الشارع ، وحيث يجب أن يتوقف لكي يعبر القطار المتجه إلى أو القادم من أثيوبيا ، وبعد أن يعبر زحام المرور ، وبعد أن يتجاوز الحفر التي ترجرج الركاب في مقاعدهم ، وحيث يجب أن أشاهد المحكمة الكبرى ، ومكتب البريد ، والمركز الثقافي الليبي ، ودار السينما ، بوسع السائق أن يدلف بمحاذاة سور ثانوية جيبوتي .

هنا وبمحاذاة السور ، وفي الفضاء المفتوح ، يوجد العديد من الأكواخ ، تنتهي حيث تبدأ بنايات متهالكة من عهد الاستعمار الفرنسي ، بين هذه البنايات توجد مياه

راكدة تركتها المجاري وهي تعبر ناحية سوق الفحم ، حيث تنتهي البنايات وعلى امتداد خمسة عشر كشكاً تباع الكتب والمجلات التي قرأها رواد الفنادق المجاورة ، وتركوها بعد أن غادروا ، لاسيما فندق علي صبيح الذي يرتاده الخبراء التونسيون والجزائريون والمغاربة .

في هذا المكان ، لم أكن أشعر بأي وحدة وأنا أنبش الكتب ، وحينما يثير الغبار حساسية جيوبي الأنفية ، كان من السهل علي أن أدور في السوق ، وأشاهد الفرنسيين الطاعنين في السن مع زوجاتهم أو عشيقاتهم الأثيوبيات ، هؤلاء الناس جعلوا من سوق الذباب أنيساً ، إذ كانوا مولعين ببعضهم ، وبالتحف الإفريقية المعروضة ، وبالملابس الزاهية .

ثمة آخرون يأتون إلى هذا السوق ، جنود فرنسيون وأمريكيون ، شحاذون ومهرجون ، نساء يصنعن السلال وهن يبتسمن للقادم والذاهب ، رجال تحيط بهم خرد أكل عليها الزمن وشرب ، فتيات يرفلن في أزياء مبركشة ، تتألف من قطع قماش زاهية .

من هذا المكان ، إضافة إلى ما حملته معه ، كوّنت مكتبة لا بأس بها ، في منتصف الصالة ، حيث تقبع

طاولة مسمرة إلى البلاط تتراكم الكتب : موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة ، ألف ليلة وليلة ، سلسلة ذاكرة الشعوب ، سلسلة الروايات الفائزة بجائزة نوبل ، وكتب أخرى مثل قصة الفلسفة ، وشعر الهايكو ، وقصص بحجم راحة اليد ، ومعجم واحد في التربية ، وأخيراً سلسلة دراسات عن التعليم والتعلم واستراتيجياته .

أسفل هذه الطاولة ، وحيث تعودت أن أستلقي على بطني أقرأ بنهم ، وبينما أنا أفعل ذلك ، اكتشفت نتفاً من سيرتي الذاتية ، واكتسبت تعليقات مفيدة على ما أعرفه من الحياة ، شعرت أن معرفتي بنفسي تتزايد ، فقد أخرج لي قدري حظي التعيس بينما الله يتفرج علي ، مشتت وعاجز وعنيف ، يمتزج في العنف بالانفعال ، والطهارة بالوقاحة .

يحدث هذا حينما تغيب المرأة العنكبوت ، أما إذا حضرت ، إذا زحزحت الكتب بقدمها من أمامي ، فأنا أعيش الحياة بكل فوضاها وبشاعتها ووحشيتها ، واستطعت بمساعدتها ، أن أؤكد قوتي تجاه الحياة بأن أحيا ، وأن أصارع ، وأن أعيش .

معها عرفت أن الحياة أغنى مما تصوره الكتب ، عندئذ اكتشفت زيف الأدب ، وأدركت كم هو الأدب بعيد عن الحياة ، في عالم وهمي لا يعيش فيه الناس مثلما يعيشون ، عالم لا يذكرني بالحياة كما هي ، بل يذكرني بالمؤلفين الذين يبنون مجدهم ، ويخلدون من وهم القارئ ، الذي يبقى في بيته يقرأ تاركاً الحياة الحقيقية خلف ظهره .

فيما أنا أعيش ، وفيما هي تجرني ، لم أجد الحالة التي تتصالح فيها الكتب والحياة ؛ لأن القراءة عيش في عالم متخيل ، بينما الحياة عيش في عالم واقعي .

شعرت أن لا شيء أكثر تفاهة ولا أشد ابتذالاً مما اعتقده الناس كتباً عظيمة ، فلا مغامرة ولا حكاية تستحق أن تكتب ، بل يجب أن تعاش ؛ وأن القراء مثل دونكيشوت حمقى ، فشلوا في أن يعيشوا الحياة ، فراحوا يستشيرون كتباً كي يعرفوا ما يجب أن يعملوا وما يجب أن يقولوا ، أما حينما أواعد امرأة ، فقد كنت أدرك كم هي الكتب بعيدة عما يحدث حقيقة .

اكتشفت وجود متعة في كل ما يحيط بي ، السؤال الذي شرع يؤرقني هو : كيف أعثر على تلك المتعة؟

من أجل هذا السؤال ، لم يعد المنطق يفي بحاجتي أو يرضي فضولي ، فبدأت كالأعمى الذي شرع يدرِّب نفسه على تلمس طريقه ، وسرعان ما تحول العمى إلى سلاح ضد المكان والزمان اللذين يكونان وجودي ، وبالرغم من سعادتي ، إلا أنني لم أكن خالياً من شعور غريب يشبه الرعب ، فدخلت في أزمة مع نفسي ، وبين حين وآخر أتعرض لحالات مجهولة لا يخلصني منها إلا الشرب .

أول مرة شربت فيها اكتشفت أن كمية قليلة تكفي للتأثير فيّ ، وقد استمر هذا على امتداد شربي ، تجربة سكر واحدة كانت الأقرب إلى نفسي من كل التجارب ، تجربة فقدت فيها توازني وتدحرجت حوالي مترين .

استلقيت على ظهري ، وراحت أجوب فضاء ذاكرتي ، لكنني لم أستطع التفكير بوضوح . بعد أن صحوت ، وجدت نفسي ألهث كمن ركض مسافات طويلة .

مشهدان اثنان من هذه التجربة لن أنساهما أبداً ، وقد كانت ذاكرتي تعرضهما علي من غير ترتيب ، وبطريقة أبدو فيها غير قادر على تصديقها . فقد نهضت ببطء ، وجزئي الأعلى عار تحت أشعة الشمس الحارقة .

تهادى نحوي أحد اللاجئين .

قال : سأرقص .

لا أستطيع أن أجزم بأنه رقص كل ما فعله أنه تحرك حول نفسه كيفما اتفق .

سأل اللاجئ :

- أعجبك رقصي؟

لبرهة لم أصدق فقد كان يلبس قميصي .

المشهد الثاني قرب الفجر ، دائماً ما أتذكره وأضحك ، فقد استيقظت وأنا ملقى أسفل عتبة المكان ، وأحد اللاجئين ينزع قميصي ، شعرت به وأنا فيما يشبه العبور من اليقظة إلى النوم ، ولم أشأ أن أنغص عليه ، فأنا في حالة لا أريد الخروج منها .

في فترات متباعدة ، كانت تعتريني اندفاعات قوية ، تختلط فيها حبوب الذكريات بزؤان الصور ، وبالقدر الذي تنمو فيه اللحظات ازدادت فيها اندفاعاتي ، فأصبحت أعيش الماضي كما لو كان حاضراً ، أعود إلى مشاهد سابقة من حياتي فأعيشها بدلاً من أن أرويها ، أكررها بدلاً من أن أكون منها حكاية متكاملة ،

لحظات معلقة أضع فيها موضع الفعل ما يجب أن يكون موضع الحكي .

هكذا كانت حياتي تسير ، حتى البارحة حينما قابلت المرأة العنكبوت ، وأخبرتني عن الموعد الذي عقدته لي في بلبلة .

(٧)

أثناء توقف الحافلة في سوق الذباب ، لاحقت ذا الأذن المقطوعة مستكشفاً حركاته ، أذهلني أنه يتعامل مع أذنه كما لو كانت موجودة ، يحكها ، ويحشر سبابته فيها ، ويصغي بها ، أعادت لي حركاته رباطة جأشي ، ومنحتني معرفة بكل أعضاء البشر غير المرئية ، وبدأت أشعر وكأنني أدركها قبل أن تخلق ، في لحظة كانت الأذن موجودة ، وفي لحظة أخرى اختفت ، حضورها كان مقتضباً في ذاكرتي حتى بدا مثل برق ، وحين اختفت مخلفة الفراغ الذي كانت تحتله ، شعرت بأنني غدوت وهماً .

ما زالت مندهشاً ، والرجل ذو الأذن المقطوعة لا يبدو عليه أنه يدير بالاً للأعين التي تخزه ، لا يبدو منزعجاً حتى لو كان بلا أذن ، لم يكن يبدو عليه أنه خجل أو قلق ، تنضح منه الثقة والرضى عن الهيئة التي هو عليها ، حتى أنه أخرج حزمة قات وراح يمضغ أوراقه ، لم يكن يقطف

الأوراق ، بل يمسك طرف الغصن ، هناك بعيد عن الأوراق ، السبابة يمسكه بطرفي إصبعيه والوسطى ، ثم يرفعه لكي يدليه ليلامس فمه ، ثم يتنزع أوراقه بثنيتيه .

والرجل يدلي الأغصان ، ويلاحقها يمنة ويسرة ، ظهر لي وجهه في صور مختلفة ، ومن زوايا متعددة ، وفيما هو يفعل ذلك أكثر من مرة ، هناك شيء ما في الرجل لم أحسن تصوره ، ما هذا الشيء؟ إلى الآن لم أكن أعرف ، فقط شيء ما يرتمي في ذاكرتي مثل خيال لا أستطيع التعبير عنه ، وفيما يشبه لحظة إلهام مفاجئة تذكرت أنني أعرف الرجل .

كنت أراه وأنا في طريقي إلى CRPN ، يجلس دائماً عند المدخل في هيئات متعددة : مرة يعتمر قبعة مصنوعة من الريش ، وتحتها باروكة شعر برتقالية اللون ، ويقف ناظراً نحو كاميرا الخبراء الفرنسيين ، ومرة تعلو صدره ووجهه أصباغ براقة ، وتتدلى من عنقه قواقع بحرية ، ومن أذنيه تتدلى أقراط مجمعة من أغطية علب البيرة يحيط به أطفال فرنسيون ، أما الصورة التي ما انفكت تطاردني والتي لا يمكن لذاكرتي أن تخونني فيما يتعلق بهذا الرجل فهي أن أذنه لم تكن مقطوعة .

تذكرت أنه قبل فترة من الزمن ، قبل حوالي ثلاث سنوات ، حين رأيت هذا الرجل أول مرة ، تملكني شعور بالحنق من أن يظهر بتلك الهيئات ، فقد بدا لي مهرجاً غير موهوب ، يفتقر إلى أدنى موهبة ، لا يفهم كيف يكون بهلواناً ، ولم تكن له لحظة بارزة تبهج من يشاهده ، بل مجرد تهيجات خارجية وحركات غير متناسقة تظهر في اللحظة غير المناسبة .

لكن ذات مرة ، وبينما أنا خارج من CRPN ، وحين توقفت لأبحث عنه ؛ ليس لأنني افتقدته ، بل لأن الطريق خال من الأطفال ، الطريق الذي ارتبط في ذهني به ، وبالريش والباروكة البرتقالية ، والقواقع البحرية ، وبأغطية علب البيرة ، عندئذ رأيته واقفاً في مكان بعيد ، وهناك على بعد مسافة منه ، شاهدت امرأة غريبة ، وبعد حين ، وفي اللحظات التي تقترب فيها منا بدت غرابتها مألوفة ، وحينما وصلت كانت المرأة العنكبوت .

الآن تذكرت أين بدأ الحديث مع المرأة العنكبوت عن الفتاة التي قابلتها في زيارتي الأولى لحي بلبلة ، فما أن وصلت إلى الرجل حتى بادرها : قحبة ، سأقتلك .

قالت : (لكن ، لم أجد أحداً . . .) ، أرادت أن تشرح له .

قال : (كذابة ، الآن سترين . . .) ، أراد أن يضربها .

كل ما جرى ، وكل هذا الغضب ؛ لأن المرأة العنكبوت لم تستطع أن تتدبر زبوناً لأحد البنات مثلما أمر هو ، فبعد أن غابت عنه يومين عادت بلا نقود ، وحكت له أنها لم تجد أحداً يذهب معها ، لكن الحقيقة ، وكما عرفت فيما بعد ، أنها فضلت ألا تعطيه شيئاً ، بعد أن اكتشفت أنه يستغلها .

قال الرجل بعد أن غادرت معي : (سأقتلك إن لم تعودي) .

منذ ذلك اليوم تلاشى الحنق الذي كنت أشعر به تجاه الرجل ، والسؤال الذي رحت أعرضه بين وقت وآخر هو أين ذهب؟ ذلك أنه اختفى فجأة ، ولم أعد أراه في طريقي ، في ذلك الحين ولبضعة أيام ، وأينما وضعت خطواتي المتجهة إلى CRPN ، تصطدم ذاكرتي بذكرى الرجل ، ويعتريني شعور بنقص ما على الطريق ، شعور فقد الأشياء بعد ألفتها .

حين ظننت أن ذكرى الرجل قد امّحت من ذاكرتي ، عاد مجدداً إلى الظهور ، فأثناء حديث عابر مع المرأة العنكبوت ، ومن غير أن أسأل عنه ، أخبرتني بأنه سرق بيت أحد الفرنسيين ، وقد لحق به الحراس ، وقطعوا أذنه .

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذه العقوبة ، ولأيام عديدة كان الخبر صاعقاً ومرعباً بشكل جعلني أرتجف كلما تذكرته ، في ذلك اليوم ، وبعد أن سمعت الخبر ، وعلى مدى ثلاثة أيام ، تكرر لي حلم يتعلق بمدينة مجهولة ، وغارقة في الظلمة ، كنت أعدو بأقصى سرعة وعلى مدى أزقة وشوارع مهجورة ، تطاردني عصابات إفريقية تحمل سكاكين حادة ، وينتهي الحلم عند باب شقتي وأنا أبحث عن المفتاح .

لكن فيما بعد تلاشى هذا كله ، اختفى الحلم ، ولم أعد أشعر بالرعب ، فقطع الآذان إجراء أمني تواطأ عليه السكان المحليون مع الشرطة بعد قدوم اللاجئين ، وسيلة يعجز عن اختراعها الشيطان ، فلقطع الآذان وظيفة مزدوجة : تحفظ وتقي من اللصوص ، وتريح الجنود من التحقيق ، والدولة من الأموال التي تصرفها على المسجونين .

هكذا ، فمن جهة تهدئ السكان وتطمئنهم وتوحي لهم بالأمن ، ومن جهة أخرى تردع اللاجئين وتثير فيهم الرعب والهلع ، وحتى في حالة إذا ما كانت آذانهم موجودة ، فإن وجودها كاف ليدل على مغامرة رهيبة .

(٨)

كانت الحافلة قد وصلت منذ وقت قصير إلى بلاص رامبو[١] ، وهنا شرعت أراقب أحد الأشخاص ، من سحنته خمنت بأنه صومالي الجنسية ، ربما كان في العشرين من عمره ، أقل أو أكثر بقليل ، كانت الحافلة التي ستقلني إلى حي بلبلة تنتظر ركاباً آخرين ، ولأنها لم تكتمل بعد فقد رحت أتابع تحديقي فيه .

كان الفتى جزءاً لا يتجزأ من مشهد متكامل يمتد أمامي ، في الخلف ، أكواخ بقمم مثلثة تحتل الجزء الأيسر من المشهد ، قمم تندس في السماء كحربة محارب إفريقي قديم ، هناك في عمق المشهد غيمة ، يتدفق من بين تخاريمها ضوء يجعل كل شيء مرئياً ، كان المشهد كله كالمنظر الطبيعي ، مهما يكن فسيظل ينقصه شيء ما لولا أشعة الشمس .

(١) موقف حافلات في مدينة جيبوتي .

في وسط المشهد سلسلة من الوجوه والأجساد ، عور ومشوهون ، شحاذون كاملو الهيئة ومشلولون ، بشر بائسون وعلى حافة الجنون ، أياد مقطوعة ، وأخرى ملتوية ، وثالثة مرتجفة من الهزال ، كان الفتى أقربهم إلى الحافلة ، أرعبني جانبه المشوه حيث يد واحدة ، وعين واحدة ، ورجل واحدة ، ويمشي كصرصار تحمله نملة .

شيء ما حوّل انتباهي عنه ، حيث امرأة متزينة بلباس محلي متجهة إلى الحافلة ، أفسح لها الرجال صامتين ، حدقوا فيها ، وتابعوها مدهوشين وهي تغنج كما لو كانت تملك فائضاً من ردفين يقفزان من لغة إلى أخرى أثناء مشيها .

لفت وجوههم هالة من الفرح ، كما لو أن سكيناً إفريقية قطعت عنهم واقعهم ، استغرق الأمر لحظات لم يعد فيها أي منهم يعرف أين هو ، ومن هو ، فقد اقتادتهم إلى حيث تتساوى اللذة والألم .

صعدت المرأة إلى الحافلة ، فشاعت رائحة بخور إفريقي ، جلست واضعة رجلاً على رجل ، فاستعاد الشيوخ الجالسين شبابهم ، بحيث لم يعد يرى في

وجوههم أي تجعيدة أو شعرة شيب ، هز كل واحد منهم الآخر ؛ كي يعود من لحظات شبابه التي يهيم فيها .

بعد قليل ، حين أردت العودة إلى المراقبة ، كان الفتى قد مدّ رأسه من باب الحافلة ليراقب المرأة التي صعدت ، في البداية مدّ يده سائلاً ، كانت تعلو وجهه براءة مهذبة كالتي تبدو على وجوه الفقراء ، لم تدر له بالاً ، فارتد إلى حالة بائسة لا يعبر عنها بالكلمات ربما لأنها يجب أن تعاش .

انسحب الفتى إلى مكان غير بعيد يراقبها ، بقي صامتاً يتفحصها ، وهي تتحمل نظراته من غير ضيق ، نسي تشوهاته ، وغرق فيها كأن سحراً يجذبه في كل حركة تقوم بها ، ترك عينه الوحيدة تتفحصها حتى أدق مسام وجهها ، تجردها من ثيابها ، وتبقيها جسداً يبعث على التوق الجسدي البدائي .

تململت المرأة تحت وطأة نظرات عينه الوحيدة كمن يشعر أنه في مصيدة ، بدت ملامحها متوترة من جراء القلق الذي اعتراها ، تصاعدت الانفعالات من أعماقها ، والفتى يحاول جذبها كي يوقفها على جرف أنوثتها . أغمض الفتى عينه الوحيدة ، ودخل في غفلة ساكنة ،

لو لم تكن واضحة في ذاكرته لاستمر في مراقبتها ، هناك حيث بإمكانه أن يمتلكها ، وأن يشكلها في خياله ، أن يلج رويداً رويداً في أعماق لجتها ، حيث يشعر بها تتلوى وتتأوه وتتوسل إليه .

كمن ارتباك المرأة في موضع أعمق وأكثر سرية ، فشرعت تتهرب من الفتى ، كي لا تلفت النظر إلى ما هي فيه ، استعادت توازنها بإجراءات مستعجلة ، مسحت عرقها ، وكنست الحافلة بنظرات عابرة ، تفقدت شعرها ، ثم شرعت تتكلم مع جارتها في المقعد بطريقة آلية ، وكان هو يراقبها ويداعبها من بعيد ، وتحت وطأة عين الفتى الوحيدة استسلم المتراس الذي يصون أسرارها الشخصية ، فشرعت تصفر من غير أن تقصد لحناً معيناً ، وشرع هو يغني من صميم قلبه ، وعلى صدى صوتهما معاً تحركت الحافلة .

(٩)

بالرغم من أن سائق الحافلة قد تجاوز عدة حافلات ، إلا أنه لم يتوقف عن كلمة (جوجي)[١] ، كان ينطقها ويخرج يده اليسرى مشيراً إلى الحافلات الذاهبة والقادمة ، يبدو أنه سائق معروف ، ويحظى بشهرة بين ركاب الحافلات ، الذين يخرجون أيديهم وهم يصرخون (جوجي ، جوجي) ، وبين السائقين الذين يؤشرون له بالأنوار الأمامية أو ينبهونه بأبواق متقطعة .

«يشبه الغوريلا» ، هذا ما فكرت فيه وكأنني تعثرت في غوريلا فجأة : طويل وضخم ، أنفه مفلطح ، شفتاه ضخمتان ومدلوقتان إلى الأمام ، يداه مسحوبتان ، شدقه الأيمن منتفخ بالقات ، وفي كل مرة يتفوه بكلمة (جوجي) يخرج رأسه من نافذة الحافلة ويبصق .

(١) كلمة صومالية معناها قف .

يمر خط سير الحافلات من أمام الثانوية الصناعية والتجارية ، من ركب حافلة إلى بلبلة ، أو كان واقفاً أمام مدخل الثانوية ، سيرى الفتيات وقد التصقت وجوههن بالزجاج ، بينما زميلاتهن متجمعات ككتلة من النمل على الرصيف يلوحن بأيديهن ، أنا لدي خبرة كافية بضجيجهن حينما يصعدن ، الفارق هذه المرة هو السائق ، كلما ركبت فتاة قال : جوجي .

- جوجي . يرد الفتيات ويضحكن .

يعلق السائق : (اضحكن) ، ثم يرفع رجله ويدوس فيتساقطن فوق بعضهن ، وهو يراقبهن في المرآة مقهقهاً بصوت كما لو كان يخرج من مغارة .

أي سعادة يعيشون فيها بالرغم من أوضاعهم المأساوية ، هذا الشعور جعلني أتطلع إلى الوراء لأراقب الفتيات اللاتي اخترن مؤخرة الحافلة وهن يضججن بالحياة .

في اللحظة التي تطلعت فيها إلى الوراء ، رأيت المرأة التي صعدت إلى الحافلة ، كانت نشوتها قد تبددت ، ونكست رأسها في هدوء وخجل ، شعرها تدلى بحزن على جانبي وجهها واتخذت وضعاً تأملياً ، وكما لو كنت

نبهتها ، التقطت طرف شيلتها ، وأعادت تدويرها حول وجهها . أذهلني أنها استجابت لما أفكر فيه ، أردت أن أتكلم معها ؛ لأعتذر لها عما بدر من الفتى الصومالي ، لكنني لم أستطع فتح فمي .

من كل قصص (كاواباتا) التي بحجم راحة اليد ذكرتني المرأة بقصة (الفتاة التي دنت من النيران) ، تلك الفتاة التي تسير في القصة نحو بحر من الحريق ، ما أسرني وأنا أراقب المرأة هو الحوار الذي دار في القصة بين مشاعر فتاة وفتى ، من غير أن يتبادلا الكلمات .

- لماذا تمضين وحيدة؟ هل تمضين إلى الموت حرقاً؟

- لست أريد الموت ، لكن دارك تقع إلى الغرب ، ولذا فإني أمضي شرقاً .

ومثل البطل في القصة قالت لي رحت أفكر في أنها قد : لا تريد أن تمضي إلى داري ، واستسلمت لكون مشاعرها نحوي فاترة ، الشيء الذي كنت عليه ، ويناقض ما حدث في القصة ، هو أن عيني لم تدمعا ، ولم تسيطر علي الكآبة .

- جوجي ، قالت المرأة للسائق .

ومن دون أن تتطلع لأحد ، غادرت الحافلة وسارت في فضاء لا تنتصب فيه إلا شجيرات قصيرة ومجردة ، لم يكن هناك دور ، ولا أثر لأي إنسان ، المشهد يوحي بالوحدة ، كانت السماء تحمل بقايا غروب لم يكتمل ، لذا كان في مقدوري أن أراقبها عبر النافذة ، وهي تسير في فضاء مفتوح مغلف برقاقة من شعاع الشمس كما لو كانت في مشهد سينمائي أخير .

(١٠)

كان الرجل ذو الأذن المقطوعة قد غادر الحافلة في بلاص رامبو ، أمام الجامع الكبير ، راقبته وهو يسير في اتجاه دكاكين الحضارم ، توقف كما لو كان ينتظر أحداً ما ، لا ، لم يكن ينتظر ، الآن عرفت أنه توقف من أجل المرأة التي صعدت إلى الحافلة .

ما الذي يجعل رجلاً قبيحاً يتوقع أن يحظى بامرأة جميلة؟ رجلاً ينقصه أذن كهذا الرجل ، يطمح في امرأة مثل تلك التي صعدت إلى الحافلة؟ سؤال جعلني أنتقل إلى حيث أقيم ذهنياً ، فالرجل حتى لو كان يعرف أنه قبيح ، وأن أذناً تنقصه ، إلا أنه في تلك اللحظة التي توقف فيها ، نسي هذا كله ، كلنا ، هكذا فكرت لكي أغلق هذه الفكرة ، في أكثر لحظات حياتنا ننسى ، وبالتالي ننسى وجودنا الحقيقي ، ولا نعد نعيه إلا في لحظات استثنائية .

حين أدركت أن جوهر الإنسان هو النسيان ، وأنه شرط وجوده ، وأنه يجعل منه غير مرتبط بعالمه إلا في الظاهر ، وأن ذلك يساعده لكي يعيش ، تملكني شعور عميق بالرضا ؛ لأنني وجدت الجزء الناقص من لغز الفتى مع المرأة التي صعدت إلى الحافلة .

لأن سائق الحافلة الذي اختار مريحاً هذا الطريق ، واعتبره مريحاً للركاب ، وقريباً من التجمعات السكنية ، فقد شعرت بقصر الوقت ، وبالرغم من أن ذاكرتي غيبتني مرات عديدة عما يحدث هنا وهناك ، إلا أنني أعرف أن المحطة التالية ، التي لا تبعد أكثر من كيلومتر واحد ، هي آخر التجمعات السكنية قبل حي بلبلة ، وهناك ستغادر آخر طالبة .

هذه الطالبة ، ومنذ ركبت تضج بالحياة ، سوداء ، لكن مليحة ، حينما غيّرت مقعدها ، من آخر الحافلة حيث تقدمت بمقدار صفين من المقاعد ، وجلست قربي ، وحينما رأيت وجهها عن قرب ، وبالرغم من أن التفاصيل التي رأيتها لا تتفق مع ما احتفظت به ذاكرتي حينما صعدت ، إلا أنها لم تلهني عن أن أنتبه إلى اكتناز صدرها تحت قميص ضاغط .

يا إلهي ، كلمة دسستها في أعماقي ، لا لم تكن كلمة ، بل صعقة ، واقع الأمر لم تكن صعقة ، بل مشهد نهدي الفتاة ، الله وحده يعلم مقدار جمالهما ، يعرف أن نهديها لا يمكن أن يكونا على شكل آخر ، وإذا لم يكن الله ، فالطبيعة تعرف ، أين قرأت . . أين؟ من ربكتي لم أعد أتذكر ، المهم أنني قرأت : «كيف تسنى لثدي الأنثى البشرية أن يتخذ بعد تطور طويل ، هذا الشكل الرائع؟ أليس الجمال الذي بلغه نهد المرأة المثال الأعلى لتطور الإنسانية؟» .

نزلت الفتاة ، ومنذ الآن فصاعداً ، لا فائدة من التحدث عن الطريق الذي تسلكه الحافلة ، فلا أحد يمكنه أن يسير على قدميه ، وحدها الحافلات التي يمكنها أن تسير في تلك الطريق الميتة ، التي لا أثر فيها لأي حياة ، لا نبتة ولا عشبة ولا حتى شجرة ، لقد أحرقتها الشمس التي تلهبها بشواظ من نار ، نار تعج في نار ، تتصارع في قرص ملتهب أعلى حي بلبلة ؛ لتغذي الريح التي تحمل الغبار الذي يجثم على الأجساد السوداء .

إلى الأمام ، في مدى الرؤية البصرية ، فوق تلة مرتفعة تنتصب صنادق الحي ، جميعها تقريباً من الزنك

المستعمل ، وصفائح الزيوت الفارغة ، طلي بعضها بألوان زاهية ، وبرزت منها الحواف المشرمة والنوافذ العالية ، وهناك ، ليس بعيداً عنها ، شاهدت ما يشبه كتلة من الخرق السوداء ، وبعد حين من اقتراب الحافلة أصبحت مثل حجارة محروقة ، ثم تصفّت لتصبح أطفالاً يتطاردون ، وحينما صرخ السائق «جوجي» تفرقوا كأسراب طيور مسعورة .

الأطفال الذين رأيتهم ، لا بد من أنهم كانوا يبحثون في أعشاش الطيور الخطافة ، هناك أسفل الحي ، حيث تهدمت العرائش التي أقامها الفرنسيون قبل رحيلهم ، تلك الطيور التي تخطف من صناديق الحي ما يقع عليه بصرها من الأشياء الصغيرة البراقة كفرش الأسنان ، والأمشاط ، والملاعق الصغيرة اللامعة ، ومقاص الأظافر ، وحبات من اللؤلؤ ، والخواتم والأقراط والأساور الذهبية الخفيفة .

سمعت عن هذه الطيور من المرأة العنكبوت ، حينما تعرفت عليها أول مرة قالت لي : إن أحد الجنود الفرنسيين أهداها قرطاً صغيراً من الذهب ، وقبل أن تنام ، وضعته على طاولة قريبة من نافذة الصندقة ، وفي الصباح

الباكر ، وفيما كانت تتقلب على الفراش ، شاهدت طائراً يدلف من النافذة ويخطف القرط الذي اختفى إلى الأبد .

بينما لاحقت فرحة الأطفال بما حصلوا عليه ، تفحصت ما يتبادلونه ؛ لأجد أنه فرشاة أسنان ومقص أظافر ، كنت قد قرأت أن أنواعاً من الطيور تخطف الأشياء البراقة ؛ لتضعها أمام عشها على هيئة حديقة ، فقد اعتادت هذه الطيور أن تزرع أمام عشها حديقة من الطحالب ، ثم تنثر فوقها أزهاراً مختلفة الألوان والأشكال تقطفها من النباتات ، كما تنثر بعض الفواكه الطازجة ، ذات الألوان الزاهية مما يعطي الممشى الممتد أمام عشها مظهر بستان حقيقي .

إذن ما يحدث حقيقة ، وليس مجرد حكايات ، ولعدم نمو النباتات حول حي بلبلة ، فقد استعاضت عنها بما تجده في صناديقه من الأشياء البراقة ، وأدوات الزينة ، والقواقع والأصداف البحرية ، وما قرأته يؤيد ذلك ، فهذه الطيور ، وفي حالة عدم حصولها على الأزهار والفواكه ، تستعيض عنها بأشياء الإنسان البراقة .

غير أن ما حيّرني هو أن هذه الطيور ، تعيش في غينيا الجديدة وأستراليا ، ما الذي جاء بها إلى حي بلبلة؟ لا أحد يعرف ، لكن وفيما أنا أفكر أخذته على أنه سر رباني يخص هذا الحي وحده ، وعلى كل حال فقد قرر أهل الحي ، قبل أن أقرر أنا ، أن معرفة هذا السر ، سر ما الذي جاء بهذه الطيور إلى هنا ، لا يفسده فحسب ، بل يفسد منزلة الحي كلها عند الله .

اليوم بالذات ، وبسبب ما تذكرته عن الرجل ذي الأذن المقطوعة ، والمرأة العنكبوت ، وعثوري على الأجزاء الناقصة من ألغاز ذكرياتي معهما ، فقد كنت أتأمل أكثر من العادة ، إذ اعتقدت أن حي بلبلة الذي لم يكن مدرجاً في أي خارطة لجيبوتي العاصمة ، ولم أعثر على أي معلومة موثقة عنه في ملفات CRPN ، ليس إلا ضرباً من الخيال ، والآن ، حين تذكرت العصافير الخطافة ، أدركت أن بلبلة حي يقع في فراغ لم يستطع أحد إمساكه على الورق .

حرب العصافير هذه ، ليست حرباً يشنها البشر ، بل تشنها العصافير المسماة «الطائر المعرش الرمادي الكبير» على البشر بحيث لا تتوانى عن اقتحام النوافذ

المفتوحة ، متى ما لمحت داخلها ما يلفت نظرها من الأشياء التي تحتاج إليها لزركشة الممشى المواجه لأعشاشها .

ما هو مستحيل ، ليس أن تتجاور العصافير الخطافة واللاجئين ، إنما المكان الذي يمكن أن أين يتجاورا فيه ، تساءلت . . أين يمكن أن يلتقيا أصلاً؟ ! أين يسعهما أن يتحاذيا إلا في مكان لا يخطر على بال؟ ! هنا لم تعد معرفتي تخرج من العلاقات ، ذلك أن لا علاقة بين أستراليا وبلبلة ، وليس علي أن أعرف ، فأنا في كل الأحوال لا أريد أن أفكر أكثر من ذلك .

كما سمعت ، تنحصر ضحايا هذه الطيور في عاملات الملاهي الليلية ، وفي القوادات ، والمومسات ، لقد قرأت في ذلك المقال ، أن هذه الطيور تمارس سلوكاً جنسياً يبدأ بأن تقف الأنثى أمام الذكر ، الذي يقوم باستعراضات غزلية ، بينما الأنثى مبهورة بحركاته ، وحين تقتنع به يشرعان في الممارسة وسط المماشي المفروشة بالورد أو المغطاة بالأشياء اللامعة .

ألا يشبه هذا السلوك سلوك بنات السوق؟ ! الاسم الذي أطلقه أهل بلبلة على المومسات والقوادات ،

كانت هذه فكرتي الأولية حينما قرأت المقال ، لكن فيما بعد ، ومع تنامي الحكايات عن هذه الطيور أصبح الأمر طبيعياً ، فيه منطق ومعنى ، فربما كان عقاباً ، وربما نذيراً بالأسوأ ، وربما عدلاً بحيث يجد الفقراء ما خطفته الطيور ، وربما لأن القوادات والمومسات هن القادرات على الحصول على هذه الأشياء ، ومن ثم ما عاد يهمني شيء في هذه العلاقة بين العصافير الخطافة والحي ، ومن الأفضل ألا أفكر في هذا ، وقد حدث فعلاً أنني لم أفكر على امتداد شهور عديدة ، حتى قابلت الأطفال وأنا في طريقي إلى الموعد .

(١١)

حينما دلفت الحافلة إلى حي بلبلة تذكرت زيارتي الأولى ، وذهلت من شعوري بأنني أعيش للمرة الثانية جزءاً من حياتي عشته من قبل ، وقد بعثت تلك الإعادة الأمينة للبشر الذين يتبولون ويسيرون شبه عراة ، والوجنات البارزة من النحول ، واللثث المائلة إلى الصفرة ، والعور والمشوهون ، والروائح المعلقة ، بعث كل ذلك في جسدي قشعريرة انسابت عبر عمودي الفقري .

قبل أن تتوقف الحافلة ، كانت المرأة العنكبوت واقفة في انتظاري ويداها معقودتان تحت ثدييها .

- سألت : كم تريدين؟

- صغيرة وعليك أن تخمن .

- يعني كم؟

- من غير أن ترى؟

توقف حديثنا عند هذا الحد ، وواصلنا السير صامتين جنباً إلى جنب .

بعد دقائق انحرفت بي إلى اليمين ، لأجد نفسي في أحد الأزقة ، توقفت ونظرت إلى الخلف فأثارت شكوكي سلسلة من المشاهد : أطفال عراة يطمرون بطونهم بالطين ، هياكل عظمية تنوس ، صراخ بلغات مختلفة عربية وصومالية وعفرية ، لاحظت ترددي فدعتني كي أتبعها ، حثثت السير عبر حفر مملوءة بالماء حتى حاذيتها كتفاً بكتف .

- وصلنا؟

- لا .

- نذهب إلى صندقتها؟

- لا .

- إلى أين إذن؟

عبرنا مجموعة من الأزقة ، ثم سرنا عبر ممر ضيق وسيئ الإضاءة ، وأخيراً انفتح باب صندقة .

- ادخل . صوت فتاة خلف الباب .

عادت المرأة العنكبوت فشعرت بعدم اطمئنان .

- بسرعة . عاد صوت الفتاة .

حينما دلفت احتجت إلى لحظات كي أتعود على الرؤية ، وما إن تصفى المنظر حتى تعثرت عيناي في امرأة جالسة في الزاوية فانكمشت على نفسي كقنفذ ، لم تكن المرأة مميزة عن نساء حي بلبلة : شعر مسرح إلى الخلف وإن لم يكن تسريحة تجمل ، قميص شفاف يكاد يظهر جلدها المشدود على العظم ملبوس فوق شلحة داكنة تغطي الجزء الأسفل من جسدها .

يبدو أن المرأة لم تشعر بوجودي ؛ إذ لم تصدر أي رد فعل ، وأنا أراقبها بحذر ، لاحظت أن تنفسها ليس منتظماً ، اقتادتها الفتاة إلى الداخل فشاعت في المكان رائحة بول .

حينما عادت الفتاة قالت : لا تقلق فهي لا تشعر بوجود أحد .

– أمك ؟

– . . . .

مرت لحظات قليلة وأنا أفكر في المرأة ، لا بد أنها تعرف شيئاً ما ، فحينما اقتادتها الفتاة نهضت كمن يخفي نفسه عن شيء لا يريد أن يراه أو يسمع به ، بدا من الصعب علي التفكير في أنها لا تعرف ما يدور في ذهني ، فلازمني تهديد غامض بالخطيئة .

- أخبرتني أنك ستأتي .

- من؟

- المرأة التي جاءت بك .

في الداخل لم تكن الصندقة تزيد عن ثلاثة أمتار عرضاً وأربعة طولاً ، إضافة إلى حصير وفراش وحيد إلى يمين المدخل وأشياء أخرى باهتة كأنها رسمت بقلم رصاص . ما لفت انتباهي أكثر هو النافذة المعلقة في الأعلى بحيث لا يصل إليها فضول أحد .

أثناء جلوسي راقبت الفتاة وهي صامتة ، فكرت : ربما لأنها صغيرة ، ولم تعش ما يكفي لفهم ما سيحدث لها ، وإذا لم يخطئ حدسي ، فقد شعرت بارتباك شاع مثل لطخة في وجهها ، كان وجهها قطعة صافية من القلق .

وهي إلى جانبي سحرتني فكرة علاقة عابرة مع فتاة تصغرني بعشرين عاماً ولا أعرف اسمها ، العادة أن أسأل أولاً عن الاسم ، لكن لا بأس - هكذا فكرت - فلا يوجد فرق بين الاسم الحقيقي والمزيف ؛ فكلاهما يشيران إلى الأجساد .

تبادلنا ابتسامات متقطعة ، وفيما هي تلملم نفسها ، رحت أفكر في أن الابتسامة كمين نصبه أحدنا للآخر ، وإجراء عملي اخترعناه معاً لنمهد المسالك الوعرة .

ملت ناحيتها ولمست شفتيها ، وأخذتها بين ذراعي ، فلم تقاوم ، بل ساعدتني برفع رأسها كي تلتصق شفتاها بشفتي ، تماوتت بين يدي أطول فترة ممكنة ، وما إن وضعت يدي أسفل بطنها حتى انتفضت .

- سألتها : هل أنت متزوجة؟

- . . . .

- لا تقولي إنك لم تنامي مع أحد قبل الآن .

- . . . .

كان صمتها مؤثراً ، وبدا لي أن قلبها مثقل بالحزن ، حاولت أن أقنع نفسي أن حزنها لا يهمني في شيء ، وتضخمت لأنها رزحت تحت أنني أفضل منها وأرقى ، لكنني لم أستطع تجاهل دمعتها ، فما أثر في أن دمعتها بلا حافز .

- سألتني ورأسها مدفون في صدري : كم عمرك؟

- . . . .

- أخمن؟

- خمني .

- يمكن أربعين .

انزلقت في ذهني فكرة كحد سكين حادة ، باردة وساخنة في الوقت ذاته ، استغرقت الفكرة لحظة فقط ، لقد خمنت الفتاة أن عمري أربعين ، لا أنا أكبر من ذلك ، من مواليد ١٩٥٥ ، شعرت بمرارة من الأفكار والمشاعر ، وانبثقت فوراً في ذهني فكرة أنني شخت وذبلت .

فيما ظفرت يدها بيدي ، استغرقت في حياتي ، واستعدت سنين من المتع . حاولت أن أقنع نفسي أن ما أرغب فيه ، وما أتبعه هو الدافع وليس المبدأ ، لذلك فأنا أفعل وكفى ، لم يكن يهمني أن الآخرين يسمون هذا ضلالاً ؛ لأنني أسميه اختياراً ، حياةً وعيشاً ، وللحظات تصورت نفسي مثل إبليس حينما خلق لنفسه الخطر .

- قالت لي : يجب أن تسرع .

هززت رأسي كأنني استيقظ من حلم مدققاً في ثيابها ونحافة جسدها تدقيقاً لا ينم عن ارتياح .

- سألتها : ما الذي تفعله أمك في الداخل؟

- ليست أمي .

- ....

- جدتي .

- أين أمك؟

- ماتت .

- وأبوك؟

اعتصمت لحظة بالصمت ثم قالت : اختفى .

اندهشت وأنا أستمع إلى جواب جاهز صادر من أعماقي أي ردة فعل .

أضافت : قبل أن يختفي قطعوا أذنه .

استغرقت في فكرة طارئة هي أن أعاشر فتاة أذنها مقطوعة ، اعترتني آلام مريعة ، لم تكن آلاماً جسدية ، بل قلبي الذي يتعذب ، تلاشت آلامي بعد أن فكرت في أنني أنجز ما أريد ، لم يستمر هذا الارتياح سوى لحظة إذ شرعت في توبيخ نفسي ، شعرت بأنني أغط في أعماقي كحجر ، هل انتعش في مبدأ أخلاقي؟ لا ، فالأمر مجرد قرف .

ارتطم بالصندقة شيء ما .

- إنها هي . قالت ببرود .

طغت علي معالم صورة مرسومة بقلم رصاص ، حيث فتاة جاثية قربي ، تفاجئ عيناها عيني في نظرة مستقيمة ، وسرعان ما تبعثرت الصورة حينما نهضت متمتمة بكلام لم أتبينه .

سألت : من؟

- المرأة .

- ماذا تريد؟

- الحساب .

- ....

- تأخذ النصف !

مددت يدي بحذر شديد إلى جيبي ، هناك قريباً من صدري تحسست النقود ، إذن كل شيء حقيقي وليس مجرد صورة .

حينما عادت ساد صمت قبل أن أتكلم .

- لكن لماذا قطعوا أذنه؟

- لأنه سرق .

فكرت للحظات أنها تتحدث عن شخص لا تعرفه .

استلقت خلفي وثوبها مرفوع إلى منتصف فخذها ، ضممتها وأصبحنا كتلة واحدة من العواطف ، فلا شيء يوحد بين اثنين مثل الحزن .

وأنا أفك الأزارير قلت : هل تسمحين بأن أرى؟

بهدوء حلت الأزارير ، لم يكن لي أي دور غير المراقبة ، أتلقى صوراً غامضة ، صوراً غير مميزة وغير مكتملة ، كان الضوء الساقط من النافذة يجعل صورها ضبابية ومتلاشية ، فأفقد إلى الأبد السر الرائع لمشاهد جسدها قبل أن تعلن أو تفهم .

وأنا أراقبها عوضت مخيلتي ما يجب أن أقوم به في الواقع ، مخيلتي التي لم تسمح لي برؤيتها ، ولا بحساب اللحظات التي استغرقتها وهي تنزع ملابسها .

استلقت بجانبي وأدارت لي ظهرها ، خلف ظهرها أكلت الرغبة وعيي كما تأكل العثة صفحات كتب قديمة ،اكتشفت أني فارغ من أي توق جسدي ، وولعي بها مشوب بترو يكاد يشبه العفة ، كان وجهي في مواجهة ظهرها الطافح بصحة باذنجانة سوداء ، وبعد أخذ ورد مع نفسي لمست ظهرها كما يلمس كائناً فائق الحساسية ، شعر بدفء ظهرها ، ومع ذلك كنت في قدم سلحفاة هرمة ، بطيئاً ومتردداً .

أشفقت على نفسي ، وتمنيت أن تشيخ الحياة وتذبل حتى لاتبقى بعدي ، ماذا لو كانت هذه المرة الأخيرة التي أحصل فيها على امرأة؟ فانتابني حزن غريب ، أخرجني منه لحن أغنية انصب علينا من النافذة العالية .

الأفكار التي تسحرنا تأتي فجأة ؛ لذلك سحرتني فكرة هي أن أحملها لكي تصف لي الرجل الذي يغني ، ابتسمت للفكرة ، وحدقت في النافذة بعينين مسحورتين ، كما لو كانتا في تمرين بصري ، بهدوء رحت أشرح لها الفكرة بينما بقيت هي مصغية . رفضت فازداد افتتاني بالفكرة .

سألتها : تعرفين حكاية الفراشة التي تسللت من النافذة؟

لم تكن تعرف ، فرحت أقصّ عليها كيف تسللت الفراشة ؛ لكي تتحدى الموت باحتضانها النار . تقبلت الحكاية كما تتقبل الحقيقة فساعدتني على أن أرفعها .

ما إن استقرت على كتفي حتى أصلحت من وضعها ، فهمت أن ما يجري حقيقة ، فليس ثمة برهان أكثر إقناعاً من حمل شيء ما للدلالة على أنه موجود . تقهقرت وأنا أقف ، لكنني استعدت توازني ، وببطء لمست جدار الصندقة .

شعرت الفتاة بما لا تدري من السمو والشعور باللانهاية ، كما لو أن النافذة تضفي إلى الكون ، تضفي إلى البحر الذي يندمج مع السماء ، تضفي إلى السماء التي فوق إفريقيا ، لحظات كتلك لا تأتي إلا إذا كانت على التخوم .

تتبعت عيناها شخص ما هناك ، في منطقة ليست في وحل الأرض ولا في فضاء السماء ، في البداية لم يكن واضحاً ، مجرد شخص لا معنى له فبحثت عن زاوية مناسبة كي ترى بوضوح .

في تلك اللحظة الموجزة ، لحظة بحثها عن زاوية نظرت إلى الأمام مباشرة ، وانتفضت حتى كادت تفقد توازنها .

- إنه أبي .

- معه أحد؟

- لا . لكنه يبدو في انتظار أحد ما .

- . . . .

- لقد ارتدى ملابسه وشرع يتحرك ويداه خلف ظهره ، له مظهر الإنسان الذي لا يعرف هدفه ، يروح ويجيء ويلوب في مكان واحد .

- هل ترين مكان أذنه؟

- انتظر .

- . . . .

- لا ، لكنه رسم وشماً مكانها .

لعبت مع أبيها لعبة القط والفأر : هو يسرع إلى أحد زوايا المكان ؛ كي لا ترى مكان أذنه وهي تسرع إلى زاوية لأخرى من النافذة كي تراه ، شعرت أن فخذيها لم يعودا يضغطان على خدي ، لم أكن أعرف أن فكرة خدرتها ، فكرة بطيئة وغامضة حفرت في ماض طواه النسيان ، ماض يعود إلى سنوات طفولتها ، حينما كانت تراقب أمها وهي تتحسس أذن أبيها ، وكيف تنزلق السبابة على حافتها .

في الأعلى الذي يسمو فوق كل الأشياء ، سافرت الفتاة في العماء من غير أي مرجعية ، سوى خط الأفق ، حدثتني عن هناك ، عن أن قريتها غافية في ضوء القمر ، وأن بعض الصخور تتدحرج من قمم الجبال التي تحرسها ، وأن الورود تختبئ خلف الأوراق .

حدثتني عنها حينما كانت طفلة ، وعن الحي الذي يغرق في العتمة ، عن إحدى اللاجئات وهي تتوهج ، تدلف كالفراشة من نافذة غير مرئية ، عطشى للاحتضان وتجيش بها الرغبة ، تسمعها تصيح (إني أموت) هل هو صوتها؟ لم تكن تعرف ربما صوت لاجئة أخرى تحتضر .

وهـي أعـلاي تتلوى كاللهب ، لـم يكن أمـامي إلا أن أتـرك روحـي محمولة في جسدها كحطام سعيد ، فاندفعت حياتها إلـي كعاصفة كنست حياتي التي تخصني : ذكرياتي ، أحلامي ، قوانيني التي سنت لي الخطأ والصواب .

توقفت العاصفة فجأة كأنما أغلق أحد بوابة ، وقرع أذني حديث اللاجئين الذين خرجوا منذ لحظة ؛ كي يراقبوا اللاجئة المتوهجة .

فتحت عيني على أنهما عينا الفتاة ، فاحترت في وجودي ضمن جسد آخر ، في نظري عبر عينين ليستا لي ، في سماعي أصوات اللاجئين بأذنين غريبتين عني .

في أثناء هذا شعرت بأن جسدي كمبنى ضخم أحتل أنا فيه مكاناً صغيراً ، مبنى يضم غرفاً فارغة وأنا فيها أقل من لا شـيء ، فكرت كـذرة من الذهب تلقت انطباعاً بالامتداد الخاوي لصدر الفتاة ، لم أكن أعبر أبواباً ، بل أجد طريقي عبر باحات فارغة تشغل فراغاً هائلاً يفصلني عن جسدي .

(١٢)

حينما غادرت الصندقة كان ذهني يعمل بدلاً عني ، سأركب حافلة إلى دوار شركة الكهرباء ، من هناك يمكنني أن أسير إلى كورنيش الإيـرون ، لا يمكنني أن أذهب بعيداً تجاه قصر الجمهورية من غير أن أمر بسكارى ومخمورين ، بعشاق ملتصقين ببعضهم البعض ، بمومسات واقفات يستعرضن أجسادهن ، بمجانين عراة ، وروائح معلقة .

لن أكمل السير ؛ كي لا أدخل في مكان مظلم ، بل سأدلف يساراً لكي أدخل في لسان من الإسفلت يؤدي إلى البحر ،آخر هذا اللسان سأتعشى في مطعم للأسماك ، وسأعود أدراجي إلى أن يقابلني قصر الجمهورية .

هناك ، أمام قصر الجمهورية ، سأرشي أحد الجنود بسيجارة ؛ لكي أقطع شارعاً قصيراً بدلاً من أن أدور على الكورنيش ، لأصل إلى ساحة الخطوط الفرنسية .

بعد أن قطعت الساحة ، وحينما سطعت أنوار الملاهي الليلية كنت مثل أرنب شارد بين الأضواء ، تمنيت لو أنني أهرب إلى أبعد مكان ، غير أني في حالة تتيح لي أن أدوس المشاعر التي تدفعني إلى الرجوع ؛ لأحتفظ بتلك التي تساعدني على الدخول ، والمغامرة هي أقوى تلك المشاعر .

دلفت إلى ملهى . ليس دقيقاً أن في الحقيقة أقول إنني دلفت . أنا هبطت إليه .

صادفت مجموعة من الرجال والنساء خلف الباب مباشرة ، كدت أعود ، لكن آخرين كانوا خلفي يدفعونني إلى الأمام .

سمعت رجلاً يقول :

- أغلق الباب .

تلفت لأرى من قال هذا .

ألن تغلق الباب؟ كرر الرجل .

ضحكت مجموعة من الرجال من لهجته العربية المكسرة ، وضحكت معهم إحدى النساء بصوت عال ، وهي تدغدغ خده ، كانت يده تحيط بخصرها ، بينما هي تنظر إلى المرآة ؛ لتضبط جسدها في أفضل حالاته .

وأنا أتلمس طريقي بين الأجساد حيتني صيحات رجل وأربع نساء ، وأفسحوا لي مكاناً على الطاولة التي يجلسون عليها ، قبل أن أجلس أدخلت إحدى النساء يدها تحت قميصي ولمست شعر صدري ، جفلت مما جعل امرأة أخرى تضحك بصوت عال ، امرأة أخرى فتحت ذراعيها فرحة بقدومي ، وتريد مني أن أجلس بجوارها ، ترددت لكنها سحبتني حتى كدت أسقط .

هناك ، أمامي مباشرة ، يوجد صف من الكراسي المرتفعة في مواجهة طاولة طويلة ، خلف الطاولة يقف ثلاث فتيات يتحركن ببطء ورشاقة ، وخلفهن جميع المقومات الأولية لهذا المكان : زجاجات بمختلف الأشكال والألوان .

يتجاوز المتواجدون ما كنت أتوقعه ، الجميع بألوان وهيئات مختلفة حيث الصدور النافرة ، والأفخاذ الممتلئة ، والرسوم الوحشية على الأذرع ، وهيئات أخرى ظللت إزاءها مشدوهاً .

الأضواء خافته وبين فينة وأخرى تتعاقب - في لمح البصر - أضواء ساطعة ، فتستثير أفكاراً شاسعة ولا

نهائية ، وتحدد أفقاً لا تبدو فيه الأشياء على حقيقتها ، أحد هذه الأضواء يوقف الراقصين في صور غامضة وغير مكتملة .

انتابني شعور بالدهشة والانبهار مع مشاعر متفجرة ومضطربة كأنني في حلم ، وبخت نفسي التي ساقتني إلى مكان لا أعرف فيه أي جزء مني ينتمي إلى الحلم ولا أي جزء مني ينتمي إلى اليقظة .

النادلات يتحركن ببطء وكثافة على إيقاع الموسيقى ، وفي حيّز محدود ومخصص لتحضير المطلوب . كن جميلات ويبدو أنهن منتقيات بعناية ، وحينما لا يكون لديهن عمل يمارسن نوعاً من الفتنة يختلف عما يجري حولهن : يهززن الأعصاب ويهمسن في الدم ، ويشققن العظام ، ويشعرن المتواجدين بأن لديهن ثغرات واضحة ، ونقاط ضعف وصدوعاً معتمة ، لكنهن بارعات جداً في تجاهلها حين تحين لحظتها .

ذهبت إلى إحداهن ، وعرضت عليها أن تشرب قالت وهي تشير بزجاجة :

- إنه خال من الكحول .

بشرتها نضرة ، شيء ما يذكرني بالبرونز ، محتشمة قليلاً وتتكلم العربية بلكنة يمنية ، في وقت فراغها حدثتني بخليط من ذكرياتها وتجاربها ، وأشياء أخرى دفعتها إلى العمل هنا .

قالت :

- إنني أصلي بخشوع ، لكنني لا أشعر أن الله يتقبلها ، وأنا أعمل هنا .

ولأنني لم أرد عليها ، سرعان ما سرحت كمن يتذكر سعادة في أعماق ذاكرته ، بينما ظللت أنا مشغولاً بما تفكر فيه ، أكملت المشروب ومن غير أن أكلمها اتجهت إلى مكان آخر .

تبعتني قائلة :

- ليس هذا كل شيء .

توقفت ورحت أرمقها ، فتوقفت هي بدورها وأمسكت بيدي ، شعرت أنها تشد عليها بقوة ، ثم راحت تحدق في وجهي وترجوني أن أنقذها مما هي فيه ، أدرت لها ظهري ، وفي اللحظة التي صعدت فيها الدرج سمعتها تكلم نفسها :

- لقد رحل .

(١٣)

إذا مشيت في اتجاه مجمع الوزارات ، فسأعبر شوارع ضيقة ، وبيوتاً قديمة ، وسأستدير لكي أواجه معهداً للتكوين التربوي ، ومن هناك بوسعي أن أسير بمحاذاة الرصيف على امتداد أراض مسورة ، ثم سكن موظفي سكة الحديد ، والساحة التي يتجمع فيها المسافرون .

يوجد بعد الساحة متنزه صغير ، فيه أشجار ضخمة ، يربض تحتها سائقو أجرة مع سياراتهم ، غير الجنود الفرنسيين لاأحد يركب معهم ، إذ كان ينظر إليهم كما لو كانوا معتوهين ؛ بسبب صياحهم الذي كنت أسمعه ليلياً من شقتي .

منذ زمن طويل ، وقبل أن أنزع ملابسي ، تكون لدي عادة : هي التحديق في المرآة ، طالما حدثت نفسي بأن علي أن أقلع عنها ، لكنني وجدت من الممتع أن أتصرف كما لو كان شخصاً آخر في المرآة ، وأن أفكر

فيما تعني نظرته التي تكون نسخة من نظرتي ، وفيما إذا كنا شخصين تطابقا تمام المطابقة ، مثل شخص وصورته في مرآة .

على أي حال ، وقفت أمام المرآة ، لاحظت أن عظام وجهي بارزة ، وأن خدي تغضنا ، ووزني نقص ، وأن قامتي تضاءلت ، وبشرتي شاحبة ، وشعري شاب .

كيف ولماذا وصلت إلى هذه الحالة؟ الحالة التي أشبه فيها جثة في كتلة من الجليد؟ جثة سليمة في الظاهر ، لكنها مهددة بالتفكك ، ما إن يذوب الغلاف الذي يحميها .

ثمة حدث يجري لي ، حدث غير مرئي ، كان هذا الذي لا يكاد يلحظ يحتلني دفعة واحدة ، يتركني ليعود كطيف ، لحظة لا غير ، ثم يختفي فجأة ، لم تكن لغتي تسعفني بتسمية ذلك الحدث ، ولم تكن تهمني التسمية ، فقد غرقت كلياً في ذلك الذي اعتراني ولم أبحث له عن تفسير .

بالأمس فقط ، قبل أن تحدد المرأة العنكبوت الموعد ، وفي طريق عودتي من البريد ، كنت مزهواً وهياكل عظمية من اللاجئين ، تلاحقني من مكان إلى

آخر : فرنك ، فرنك واحد ، كيف لم أنتبه إلى هياكلهم العظمية؟ لماذا لم تدربني؟ وتثير انتباهي؟ وتسمح لي بإدراك ما كان خافياً علي؟ .

لو وثقت في تلك الهياكل العظمية ، وفيما تشير إليه حينما تنوس ، لكانت بالنسبة لي هياكل لاكتشاف حالتي ، لقد عرفت أن الاكتشاف ليس مساراً إنما هو بحث وتنقيب ، وأن حقيقة وضع ما لا تكمن في ملاحظته يومياً ، غير أن مشهداً في المرآة ، وإدراكاً من زاوية خاصة ، وقليلاً من التفكير ، أتاح لي أن أفهم ما أنا فيه .

ماذا فعلت إلى الآن؟ تفحصت حالتي ، شرحتها وحللتها ، هذا ما استطعت فعله ، فعرفت أنني شخت وهرمت ، وأنني قريب من الموت ، قريب أكثر من أي وقت مضى ، لكنني لم أكن أشعر بعبء شيخوختي ، فحينما يدنو الموت ، لا تغدو الشيخوخة عبئاً ثقيلاً على البشر .

شاعت على وجهي ابتسامة عبثية وساخرة ، وتأكد لي أنني أعيش بصورة مملة ، تركت الصالة لكي أطل من أعلى الدرج ، بعد أن دوت ضحكة جماعية للنساء الأثيوبيات وهن عائدات من ملاهي وسط مدينة جيبوتي ، كبرت ابتسامتي ثم تضخمت وتحولت إلى ضحك مرير .

لـم يـدم مشهد الأثيوبيات سـوى لحظات ؛ لأنهن كن قد دخلن الشقة ، لم ينظرن إلى أعلى مما يعني أن ضحكي لم يكن مادياً ، بل حالة داخلية ، وكما لو كنت أحضر حفلاً لموتي ، خرجت إلى الشرفة ؛ لأتفرج على العالم الذي تخيلت أنه يحتفي بي لآخر مرة .

أوراقي وقلمي كانتا معي ، لكي أدون ما اعتقدت أنه سيساعدني على أن أمسك بلحظات متلاشية . وفيما أنا أدوّن ، تجاهلت ما يخجلني ، طردته ، نظفت رأسي منه ، لكن لحظة واحدة بقيت ككنز مخجل .

يجب أن أعترف بأن فتاة الصندقة قد حركت فيّ شيئاً ما فكل ما فيها طبيعي ، ومليء بالسعادة ، وفوق ذلك تقول : إنها تريد أن تحبني وأن أحبها ، وحينما ظننت أنني توصلت إلى ما حلمت به ، أخذته تلك اللحظة التي كنت فيها كسلحفاة ، بطيئاً ومتردداً .

كل لحظات حياتي انفلتت ، ذابت وتلاشت ، مضت بالخفة ذاتها التي مرت بها طافية في هذا الكون ، إلا تلك اللحظة ، بقيت ثقيلة كجبل ، فإلى أن أتذكرها يكون الوضع ساكناً في ذاكرتي .

أعرف أنني لن أكون مثل تلك اللحظة ، ليس مطلوباً مني أن أعيش ، أنا مثل أي لحظة ليس مطلوب مني أن أدوم إلى الأبد . الآن أنا أطفو نحو نهايتي ، فتلك اللحظة كالموت تنفّذ في الواقع ما تعلنه دائماً .

يمكن لمجريات شعوري أن تقرأ في مشهد شروق الشمس ، مشهد قصير وعابر ، يبدأ لكي ينتهي ، وبذلك فهو مشهد تمثيلي يقدم موجزاً لحياتي ، بهدوء ، وبلا ضجة ، ومثلما تلاشى شروق الشمس سأتلاشى ، أحد ما على ما أتذكر قال «ليست النهاية انفجاراً هائل الضجة ، ربما ليس ثمة ما هو أشد هدوءاً من النهاية» .